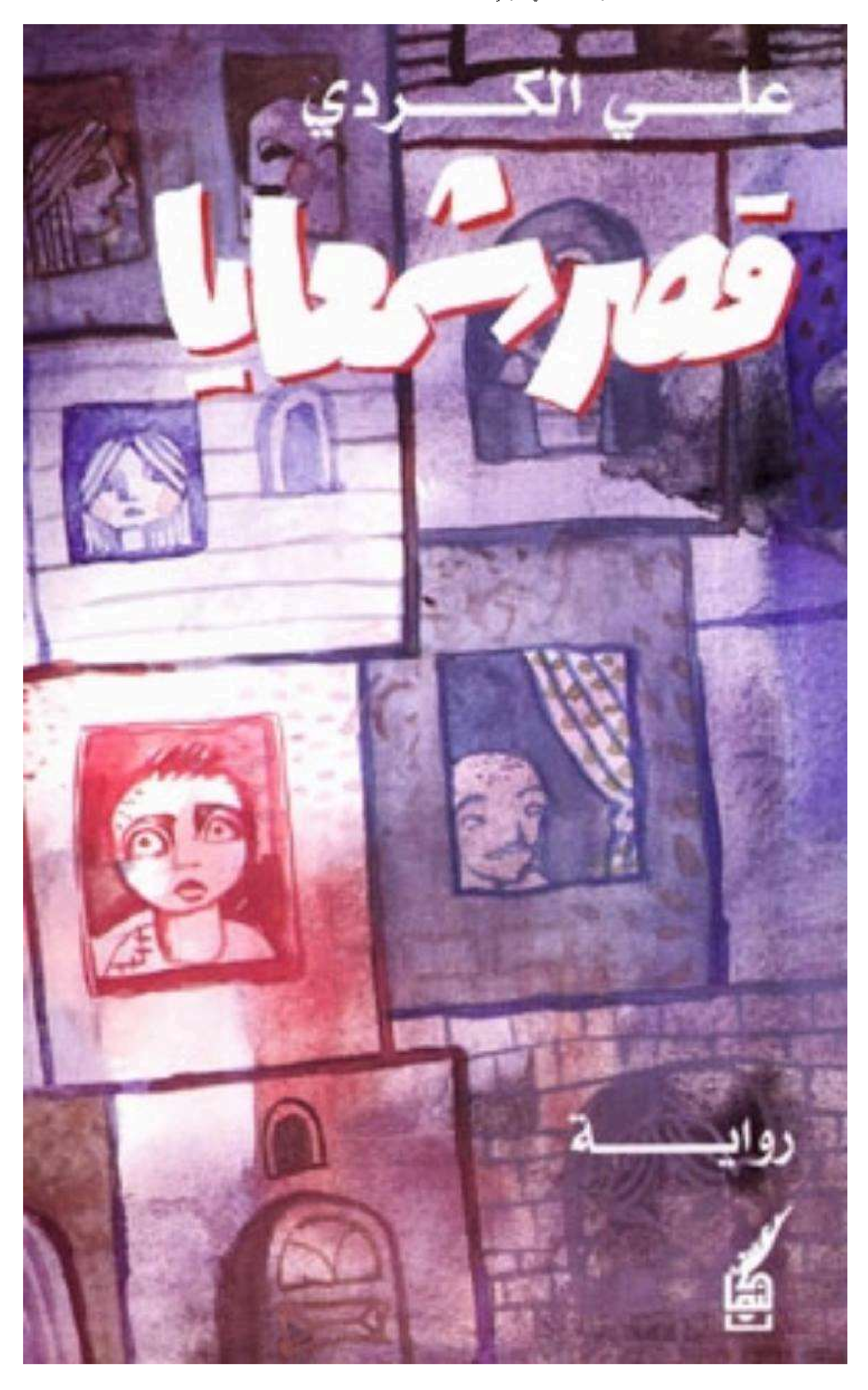


«قصر شمعايا» لعلي الكردي: أمكنة بلا مكان


علي الكردي
قصر شمعايا
رواية

المؤلف: عيسى راشد
التاريخ: 16-02-2010
رقم العدد:11519

فوّت الكاتب الفلسطيني علي الكردي فرصة ثمينة، على نفسه أولاً ومن ثم على قرائه، في كتابة عمل استثنائي عن مكان استثنائي عاش فيه مذ كان عمره عاماً واحدا (مواليد 1953). فأن ينشأ المرء (أي امرئ فما بالك إذا كان فلسطينياً) في حي اليهود الدمشقي يعني أنه سيعلق في دوامة من الرموز والأسئلة والدلالات، ولعل الكاتب لا يكف عن الإشارة إلى ذلك (إلى الفكرة، من دون التفاصيل)، في روايته الصادرة حديثاً عن دار كنعان بدمشق والمعنونة بـ «قصر شمعايا». وقصر شمعايا، حيث يترعرع بطل الرواية، كما كاتبها، يقع في قلب هذا الحي، الذي يتجاور فيه أهل الشام من مختلف الطوائف والأديان؛ مسيحيين ويهود ومسلمين متعددي الطوائف والمذاهب، وبالإمكان أن يتخيل المرء اي احتكاك سينشأ على مدى الأيام، أي تقاطع أو قطيعة أو التقاء أو حروب صغيرة كانت أم كبيرة. وفوق كل ذلك جيء باللاجئين الفلسطينيين ليُزجوا في قلب هذا المكان، بقرار من الحكومة السورية في خمسينيات القرن الماضي، يقضي بأن يحلّ اللاجئون محل اليهود الغائبين آنذاك. ذهبنا إلى «قصر شمعايا» مع توقع لرصد غني لتفاصيل البشر والأمكنة. على مستوى المكان اكتفى الكاتب برصد عيش اللاجئين البائس في القصر، الذي جرى تقسيمه وتهديم أجزاء منه مع الزمن تناغماً مع عيش أعداد كبيرة من العائلات. هناك راحت تعيش نباتات اللاجئين ودجاجاتهم وأغنامهم وصراخهم، ولكن من دون النظر إلى الجانب الآخر؛ عمارة هذا المكان. من يتسن له زيارة الحي اليوم، وهو قد تحول إلى حي للفنانين التشكيليين (في استكمال أخاذ لدورة الرموز) فباستطاعته أن يرى بعض الرموز اليهودية الخاصة، من كتابة عبرية هنا أو رموز ورسوم هناك، هذا لعابر السبيل، أما للروائي فكنا ننتظر أن يرصد الكثير من ذلك، وهو قد بدا غافلاً تماماً عن كل ذلك، على مستوى جماليات المكان ودلالاته، مع العلم أن المكان في رواية علي الكردي ينبغي أن يكون قضية أساسية، هو الذي يعنون روايته باسمٍ لمكان، وهو الذي يشكل فقدان المكان جوهر قضيته وأزمته كفلسطيني. مرة فقط لفت حضور الرموز، عندما يلتقي على باب الفرن عاشقان، فلسطيني ويهودية، كل ليخبز كعك العيد خاصته، حينها كان لكل كعكة رمز وطريقة ورائحة، راح العاشقان يتنشقانها. لكن اللقاء، وكل لقاء اليهود بالآخرين لم تمض أبعد من ذلك. لقد فرضت الرواية قدرها الخاص، وربما طريقتها الخاصة في

«رفض تطبيع» مبكر، فكل قصص الحب مع اليهود عذرية، إن لم نقل نظرية، وتريد أن تقول شيئاً واحداً هو استحالة هذا الحب، الذي يبلغ أوجه في فصل يحمل اسم «روميو الفلسطيني وجولييت اليهودية»، حيث ترفض أسرتا العاشقين تزويجهما، ما يؤدي بالعاشق لإحراق نفسه، وبالعاشقة لتجرّع السم. يحضر اليهود، في حارتهم، بشكل عابر وطفيف لا يكاد يذكر، فكلهم يتسللون تحت جنح الظلام خارج البلاد، بعضهم إلى «إسرائيل»، وبعضهم الآخر إلى أصقاع الأرض. الذي يذهب إلى «إسرائيل» يعود محارباً يقصف بطائرته موطنه السابق، فتسقط طائرته ويسقط هو في الأسر، ويواجه والده الطبيب الشهير الذي لم يغادر، فيتنكر لابنه العائد بزي محارب. أما موسى الذي يظهر في باريس بعد سنوات من الهجرة، فيروح يتحدث عن أزمة الهوية، هو الذي رفض أن يصبح إسرائيلياً يروح يتحدث عن إسرائيل التي انتزعت الهوية واللغة العربية لليهود العرب، فلا هم أصبحوا إسرائيليين ولا استطاعوا العودة إلى عروبتهم. من دون تعرجات لقد بدا بطل الرواية حذراً منذ ولادته في التعاطي مع يهود الحي، كما لو أنه قرأ مبكراً «نظاماً داخلياً» لحزب يمنعه من ذلك. بدا يحاول التطهر من أناس هم زملاء دراسة وعيش، فماذا راح الروائي يفعل هناك إذا لم يقرر خوض مغامرة، أو يكشف سراً، أو يقدم رواية أخرى، لا تشبه الدارج؟ الحق أن بطل الرواية بدا في وضع مشفق، في الوقت الذي كنا نحسده على عيش تجربة استثنائية ستمكّنه من امتلاك حكاية لا يعرفها أحد، ولن يرويها سواه، بطل لا يلوي على شيء، يمشي في خط سير لا تعرجات فيه، عاش حياة البؤس، وانتهى فدائياً، ثم معتقلاً لدى «اسرائيل» لسنوات طويلة، ليخرج بعدها بعملية تبادل ليعود من ثم إلى دمشق ليعمل في الكتابة والصحافة. وهذا يذكّر أيضاً أن هذا المثقف المتأخر لم يُظهر تأملاته في المكان وإشكالاته، فهو حتى على هذا الصعيد لم يقدم مغامرة تذكر. من جهة أخرى يتتبع الكاتب مصائر لاجئي «قصر شمعايا» الذين توزعوا هم أيضاً في أصقاع الأرض، وهنا أراد أن يقول فكرة واحدة عن جميع من هاجر، لقد عاشوا جميعاً حياة بؤس روحي وفراغا جعلهم يلتفتون مجدداً إلى هذي البلاد (ألم تكن هذي البلاد منفى هي الأخرى؟!)، ومن دون سبب مفهوم، أو مقدمات منطقية، أو لأن الرواية شارفت على الانتهاء، سنرى إلى حياة هؤلاء وقد شارفت على الدمار. أبرز هذه القصص تتعلق بابنة عمة البطل، رشا، التي تسنى لها مبكراً أن تغادر «قصر شمعايا» ثم يتفرق إخوتها إلى دول الخليج، ويبدو أن البطل واقع في غرامها عن بُعد، لكن الكاتب سرعان ما يأخذها إلى زواج من رجل سعودي، وحتى يجعلها تقبل (وهي الذكية والمتعلمة والجميلة) الزواج من ذلك الثري، كان لا بد ان يقدمه كرجل متحضر، اضطر كرمى لعينيها أن يترك بلاده ويغادر إلى الولايات

المتحدة. في آخر العمر، ومن دون مقدمات، تكره حياتها وزوجها وتحن بشكل غامض إلى بطل الرواية، ونشعر أن كل حياتها ذهبت هباء بعيداً عنه وعن عالمه. ومن دون مقدمات أيضاً سنرى أن ولديها سار كل منهما في طريق رهيب، أحدهما تحول إلى أصولي، والآخر يترك البيت منضماً إلى الجيش الأميركي في العراق. لا أحد ضد فكرة كهذه (رعب المنفى والاغتراب، بغض النظر عن عدم واقعيتها)، لكنها فقط بحاجة لترجمتها روائياً. ما يحيّر في الرواية أيضاً ارتباك الكاتب، الذي قسم روايته إلى فصول، لكل منها عنوان وراوٍ، كان من الصعب في مرات كثيرة معرفه من هو، عدا عن أن فصولاً عديدة ظل راويها مبهماً. لكن المحير أكثر أن يبدأ الفصل براوٍ ولا يلبث أن يتبدل بعد سطرين شخصاً آخر يكمل وحده الروي. كذلك يحيّر ضعف لغة الرواية، اللغة التي تشي بكاتب هاو، يستعمل اللغة من دون حساب ولا انتباه.



الكلمات الدالة

الكردي علي | القصة العربية | الفلسطينيون | الكتب | المراجعات

شروط الإستخدام

للتواصل معنا archives.assafir.com